

من الفعل إلى السلوك: رحلة المفهوم بين القيم المجتمعية وتأسيس المعنى الإنساني

From Action to Behavior: The Journey of the Concept between Societal Values and the Construction of Human Meaning

أ. محمد البركة: طالب باحث في علم الاجتماع، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، المغرب.

Mr. Mohammed Al-Baraka: PhD student in Sociology, Abdelmalek
Essaadi University, Tetouan, Morocco.

Email: muhammedelbaraka@gmail.com

DOI: <https://doi.org/10.56989/benkj.v5i10.1608>

المخلص:

يسعى هذا المقال إلى مقارنة الفروقات الأنطولوجية للفعل مقابل السلوك من خلال تحليل متعدد المستويات، أي الدمج بين المرجعيات الكلاسيكية والمقاربات النظرية المعاصرة، إذ يبرز من خلالها أن السلوك الإنساني ليس انعكاسا ميكانيكيا للنية الفردية، بل هو حصيلة لتفاعل مركب بين الدلالات الذاتية التي يصوغها الفاعلون من جهة، وبين البنى والمؤسسات والقيم المعيارية التي تضيف على الأفعال طابعها الاجتماعي من جهة أخرى. باعتبار أن مكانة القيم الكونية مثل العدالة والكرامة كونها مرجعيات توطر السلوك وتمنحه بعدا إنسانيا يتجاوز الإكراهات السياقية والتركيبية الإنسانية للبشر. ويتناول المقال أثر التحولات الحديثة كالتحديث، العولمة والرقمنة في إعادة تشكيل أنماط الفعل والسلوك، مبرزا ما تطرحه من توترات بين مطلب الحرية الفردية وضغوط المعايير الجماعية. وهذه التحولات تستدعي إعادة بناء قراءات علمية سوسيولوجية أكثر شمولية للسلوك، تتجاوز ثنائية الفرد - المجتمع نحو رؤية تركيبية تستحضر التداخل بين الذاتي والبنوي. وفي الختام، يدعو النص إلى بلورة سياسات تربوية ومؤسسية تراعي هذا التداخل، بما يضمن توازنا بين تمكين الفاعل وحماية القيم والأخلاق الكونية، سعيا لتأسيس معنى إنساني أكثر رسوخا في ظل التحولات المعاصرة المكرسة للامعنى في السلوكات والأفعال البشرية والمجتمعية.

الكلمات المفتاحية: الفعل الاجتماعي، السلوك الإنساني، القيم المعيارية، البنى والمؤسسات الاجتماعية، التحولات الحديثة للأخلاق.

Abstract:

The article seeks to examine the ontological differences between action and behavior through a multi-level analysis that integrates classical references with contemporary theoretical approaches. It argues that human behavior is not a mechanical reflection of individual intention but the outcome of a complex interaction between the subjective meanings actors construct and the structures, institutions, and normative values that confer a social character on deeds. The text also stresses the status of universal values—such as justice and dignity—as frameworks that orient conduct and lend it a human dimension that transcends situational constraints and the particular composition of human agents. The article addresses the impact of recent transformations, notably modernization, globalization, and digitization, in reshaping patterns of action and behavior, highlighting the tensions they generate between demands for individual freedom and pressures from collective norms. It contends that these shifts call for the reconstruction of more comprehensive sociological readings of conduct, moving beyond the binary of individual versus society toward a synthetic perspective that accounts for the interpenetration of the subjective and the structural. In conclusion, the text advocates the formulation of educational and institutional policies that address this interplay, thereby balancing the empowerment of actors with the protection of universal values and ethics, and aiming to establish a more stable human meaning in light of contemporary transformations that often foster meaninglessness in human and social practices.

Keywords: social action, human behavior, normative values, social structures and institutions, contemporary ethical transformations.

المقدمة:

يعد السلوك الإنساني أحد أكثر المواضيع إشكالا وتعقيدا في العلوم الإنسانية والاجتماعية، نظرا لارتباطه الجدلي بالمعنى، والبنى الاجتماعية، وبالفاعلية الفردية. فقد ظل التمييز بين الفعل والسلوك سؤالاً مركزياً في الفكر السوسيولوجي، منذ تأسيسه مع "أوغست كونت" و"إميل دوركايم"، وصولاً إلى المقاربات التفاعلية والرمزية المعاصرة.

إن مقارنة هذا الموضوع من منظور سوسيولوجي يسمح بالكشف عن المسارات المتعددة التي عبرت منها الظاهرة الإنسانية، وعن كيفيات تشكلها بين المعنى الذاتي من جهة والضوابط الاجتماعية من جهة ثانية.

في هذه الورقة، حاول الباحث الانتقال بالمفهوم وسحبه الى المجال الاجتماعي او المسرح الذي تعرض فيه كل الأفعال والسلوكات، وذلك عبر قطع هاتين المحطتين الأساسيتين:

- من الفعل إلى السلوك: رحلة السلوك الإنساني في الفكر السوسيولوجي.
- الأخلاق والقيم الكونية كموجه للسلوك في سياق الأزمات والتحويلات المعاصرة.

1) من الفعل إلى السلوك: رحلة السلوك الإنساني في الفكر السوسيولوجي:

يمثل التمييز بين مفهومي الفعل والسلوك نقطة انطلاق لفهم سيرورة الظاهرة الإنسانية، فقد عرف ماكس فيبر الفعل في كتابه الاقتصاد والمجتمع انطلاقاً من فهم لعلم الاجتماع في كليته بكون أن "علم الاجتماع... هو علم يهتم بالفهم التفسيري للفعل الاجتماعي، وبالتالي بالتفسير السببي لمساره ونتائجه. وسنتحدث عن "الفعل" بقدر ما ينسب الفاعل الفردي معنى ذاتياً إلى سلوكه، سواء أكان ظاهراً أم باطناً، فعلاً أم امتناعاً، أو حتى قبولاً ضمناً. يكون الفعل "اجتماعياً" بقدر ما يأخذ معناه الذاتي في الاعتبار سلوك الآخرين، ومن ثم يتحدد مساره وفق ذلك". (Max Weber, 1921: 4)؛ أي أن كل سلوك ينطوي على معنى ذاتي يضيفه الفاعل عليه، سواء أكان فعلاً ظاهراً أو باطناً، إيجابياً أو سلبياً، شرط أن يأخذ في اعتباره سلوك الآخرين. وبالتالي؛ فالفعل عند فيبر نشاط واع مقصود تسبقه نية ومعنى ذاتي.

في المقابل، فإن السلوك أوسع من ذلك، إذ يشمل الأفعال المقصودة وغير المقصودة، التلقائية، وردود الأفعال الآلية، ويصاغ تحت تأثير الثقافة، القيم، والمعايير الاجتماعية (القوانين، العادات، والتقاليد، والدين...).

ولإسقاط هذه النظرية على الواقع الاجتماعي، يمكن استحضار مثال من الوسط الجامعي وموضعه على طالب يشارك في وقفة احتجاجية بدافع وعي والتزام فكري، فهو هنا يقوم بفعل واع. أما الطالب الذي يشارك فقط تحت ضغط زملائه أو انسياقا مع الجو العام، فهو يندرج ضمن سلوك جماعي أكثر منه فعلا فرديا تلقائيا.

هذا التمييز المفاهيمي يفتح أفق التساؤل حول الكيفيات التي درس بها الفكر السوسيولوجي سيرورة الفعل والسلوك الإنساني.

1. اتجاه الفلسفة الوضعية:

انطلقت دراسة السلوك الإنساني مع الفلسفة الوضعية عند أوغست كونت، الذي اعتبر الظواهر الاجتماعية "ومن ضمنها السلوك" قابلة للفحص الموضوعي والقياس بهدف صياغة قوانين ونماذج تفسيرية. وقد واصل إميل دوركايم هذا النهج، معتبرا أن أنماط السلوك مثل الانتحار أو أنماط التضامن (الآلي والعضوي) تشكل "ظواهر اجتماعية" مستقلة عن الأفراد.

2. الاتجاه الوظيفي السوسيولوجي:

يؤكد دوركايم في قواعد المنهج السوسيولوجي أن السلوكيات والتقاليد والعقائد توجد "خارج الأفراد"، وأنها تمارس عليهم ضغطا اجتماعيا، ما يجعل فهمها يقتضي تجاوز التفسيرات الفردية. هذا الطرح يندرج ضمن ما يسميه الباحثون بالمنظور الماكروسوسيولوجي، حيث تدرس الظاهرة في كليتها المجتمعية.

إذ يطرح إميل دوركايم في مؤلفه قواعد المنهج على أنني "عندما أقوم بواجباتي باعتباري أخا أو زوجا أو مواطنا، وأؤدي الالتزامات التي أخذتها على نفسي، فإنني ألتزم بما هو معرف في القانون أو في التقاليد؛ وتقع هذه المؤثرات خارج نفسي وأفعالي وتصرفاتي ... وبالمثل، فإن المؤمن يكتشف منذ مولده عقائد وممارسات جاهزة تحدد ملامح حياته الدينية؛ أي أنه يصادفها خارج نفسه. كما أن نسق الإشارات والدلالات التي استخدمها للتعبير عما يدور في نفسي من أفكار

ومشاعر والنظام المالي الذي أتبعه لتسديد ما عليّ من ديون أو لتفعيل علاقتي التجارية والممارسات التي أنتهجها في حياتي المهنية، الخ. - هي بمنزلة كيانات مستقلة وفاعلة بصرف النظر عن الطريقة التي أستخدمها بها. وإذا ما أخذنا في الاعتبار كل فرد في المجتمع؛ فإن هذه الملاحظات تصدق على الجميع". (Émile Durkheim, 1982: 50-51).

لاحقا، طورت البنائية الوظيفية (بارسونز وميرتون) تصورا يرى السلوك إطارا لفهم كيف تساهم البنى الاجتماعية (قيم، أدوار، مؤسسات) في ضبط النظام الاجتماعي والحفاظ على توازنه، مع الإقرار بوجود هامش للانحراف حين تغشل هذه البنى في أداء وظائفها.

3. اتجاه التبادل الاجتماعي:

بموازاة ذلك، اقترحت نظرية التبادل الاجتماعي أن الفعل الإنساني يقوم على موازنة بين التكاليف والمنافع، وأن التفاعلات الاجتماعية أشبه بشبكات تبادل للموارد المادية والرمزية. وهو ما يجعل السلوك نتاجا لاعتبارات عقلانية ومصالحية، لكنه أيضا يتأثر بالمعاني الاجتماعية.

"قبل نحو عقدين من الزمن، جادل هومانز (1958) بأن اعتماد نموذج التبادل للتفاعل الاجتماعي سيساعد في حل ثلاث مشكلات نظرية في العلوم السلوكية. فقد اقترح أن مفاهيم التبادل سوف:

- تساهم في إظهار العلاقة بين العمل التجريبي والمختبري والدراسات الإثنوغرافية الميدانية؛
- تمكن علماء الاجتماع من صياغة سلسلة من المقترحات العامة المتعلقة بالسلوك الاجتماعي الأولي؛
- تبدأ في توضيح كيف يمكن اشتقاق هذه المقترحات التي تصف سلوك الجماعات من مقترحات أعم وأشمل عن السلوك (...).

غير أن الاستخدام المتكرر والإشارة المستمرة إلى مفاهيم التبادل لم يحقق، حتى الآن، الحلول النظرية التي وعد بها هومانز. وستبين مناقشة هذه المشكلات ما الذي لا يمكن لمفاهيم التبادل تحقيقه وتحدد بعض المشكلات الجوهرية في العلوم السلوكية المعاصرة (...). وأضاف هومانز أن هذا العمل (سيعزز إذا اعتمدت لدينا النظرة القائلة بأن التفاعل بين الأشخاص هو تبادل للسلع، المادية وغير المادية) (Hamblin & Kunkel, 2021: 49-50).

4. اتجاه التفاعلية الرمزية:

أما التفاعلية الرمزية (ميد، وآخرون) فقد قدمت إطاراً أكثر دينامية، حيث ينظر إلى السلوك باعتباره نتاجاً للتفاعل الرمزي بين الأفراد، وعملية متواصلة لإنتاج الذات والمعنى داخل الحياة اليومية. واعتُبر من منظور شخصي على أن هذه المقاربة من أكثر الأدوات التحليلية قدرة على تفسير الظواهر المعاصرة مثل الهجرة غير النظامية، إذ تسمح بتتبع كيف تعاد صياغة معاني "النجاح"، "المخاطرة"، و"الكرامة" في الحوارات اليومية والشبكات الاجتماعية سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة، مقصودة أو عفوية تلقائية.

"يظهر العابرون ما يسميه "إرفنج غوفمان" الإغفال المهدب تجاه الآخرين الذين يتوقعون منهم مثل هذا السلوك في الأحوال العادية. ومثل هذا الموقف لا يعني تجاهل الآخرين كلياً، لأننا نكون مدركين وواعين لوجودهم وحركتهم، ولكنه يعني امتناعنا عن اقتحام حياتهم وأنماط سلوكهم المعتاد في وضع معين، ونحن نتخذ مثل هذا الموقف الشعوري والسلوكي مئات المرات في حياتنا كل يوم بصورة عفوية، وقد يرى بعضنا أن لا أهمية لمثل هذه المواقف البسيطة التي نتخذها أثناء عبورنا الشارع العام أو مواجهتنا أنماط سلوك وثقافات مختلفة" (انتوني غيدنز، 2005: 158).

هكذا، يبين هذا المسار أن دراسة السلوك الإنساني لا يمكن اختزالها في بعد واحد، بل تتطلب تكاملاً بين مناهج متعددة: من الوضعية إلى الوظيفية، ومن العقلانية إلى التفاعلية الرمزية.

2) الأخلاق والقيم الكونية كموجه للسلوك:

في السياق الراهن، ومع تصاعد الأزمات والتحويلات العالمية، أصبحت القيم الكونية (كالعدالة، الكرامة، التضامن) بمثابة بوصلة لقياس وتوجيه السلوك الإنساني للأفراد والمجتمعات. ورغم ضغوط البنى الاجتماعية وإجراءات المنفعة الفردية، يظل حضور هذه القيم ضرورياً لإعطاء المعنى للسلوك وإضفاء الشرعية عليه.

لقد أشار فيبير إلى أن ما هو داخلي وفطري في مؤلفه الاقتصاد والمجتمع، ويعنى علم النفس بدراسته، بينما أكد دافيد هيوم على أن الأخلاق تقاس بالعاطفة أكثر مما تقاس بالعقل. من هذا المنظور، تبدو الحاجة ملحة لترقية القيم من مجرد شعارات إلى ممارسات متجسدة في الحياة اليومية، قادرة على إعادة تشكيل البنى الاجتماعية والثقافية، في زمننا الحالي المعاصر والرقمي؛

زمن الأزمات والتحويلات الكبرى، أصبحت القيم الكونية كالعدالة، الكرامة، التضامن بوصلة لقياس سلوك الأفراد والمجتمعات، حتى وسط ضغط البنى الاجتماعية أو إغراءات المنفعة الفردية. حتى الاقتداء بالنموذج الغربي أو العربي القديم فهو ناقص، ولو في ثقافتنا الداخلية أصبحت على قول الأستاذ طاهر لبيب تكرر اللامعنى، إذ إننا نسير في طرح "دافيد هيوم" في أن الاخلاق تقاس بالعاطفة وليس بالعقل تماشياً مع اعتقاد فيبر بأن ما هو داخلي فطري طبيعي من شأن علم النفس قياسه ودراسته.

على أمل أن تترقى القيم من مجرد نصوص وشعارات، إلى معان تتجسد في ممارساتنا اليومية وتعيد تشكيل البنى الاجتماعية والثقافية والفكرية في ذواتنا ومجتمعاتنا المتخلفة حقا وإعطاء معنى ودلالة لكل مدلول.

دائماً ما عمدنا إلى الفصل بين الإنسان باعتباره تجانساً بين القوى الجوهرية وأساساً تتمثل في العقل، والأخلاق، والروح، إذ تمثل جوهر الكائن البشري أو الحيوان فلسفياً في ارتقائه لسمو الإنسان والإنسانية وخلقه للمعنى وإيجاده، انطلاقاً من ذاته في قطيعة مع الشذوذ الاجتماعي ومؤثراته التي قد تكون من شأنها التأثير على السلوك وإعادة إنتاج نفس الفكر.

ونفس المجتمع بما يحمله في السلوك الإنساني، مرسخين لهابيتوس اللامعنى اجتماعياً.

يرفض "بورديو" أطروحة المذهب الذاتي التي تحيل الممارسات إلى الحساب والقرار العقلاني والقصد الواعي كعمليات عقلية؛ أي التي تجعل مما يجري في أذهان الفاعلين مبدأ مسبباً لسلوكياتهم المتوافقة (أو غير المتوافقة) مع القواعد والمعايير الاجتماعية؛ إذ يلح بورديو على أن الاستراتيجيات التي ينفذها الفاعلون أثناء ممارساتهم ليست قرارات واعية ومحسوبة بعقلانية، وإنما هي نتيجة لاستدماجهم الطويل، إلى هذا الحد أو ذلك، للضرورات الكامنة في الوضعيات التفاعلية في شكل استعدادات معرفية؛ إن الهابيتوس كضرورة تحولت إلى فضيلة، ينتج استراتيجيات تجد نفسها خاضعة موضوعياً للوضعيات، على الرغم من أنها ليست نتيجة لاستهداف واع لغايات محددة عن وعي على أساس معرفة ملائمة للشروط الموضوعية، وليست نتيجة لتحديد آلي بوساطة الأسباب. إن للفعل الذي يوجهه حس اللعب كل مظاهر الفعل العقلاني الذي يمكن أن يرسمه ملاحظ محايد ومزود بكل المعلومات المفيدة، وقادر على التحكم فيه عقلانياً، ومع ذلك لا يصدر هذا الفعل عن العقل. يكفي التفكير في القرار الآني للاعب التنس الذي يصعد إلى الشبكة في الوقت غير الملائم

لنفهم أن هذا القرار لا علاقة له بالبناء العالم الذي وضعه المدرب بعد التحليل لتفسيره واستخلاص بعض الدروس منه" (بيير بورديو، 2018: 68).

يمكن اعتبار السلوكيات الفردية انعكاسا للمجتمع وثقافته والبنى المشكلة له، إذ يتحتم على الفرد "المستبعث" أن يكون مقيدا بالقواعد الاجتماعية السابقة لوجوده ولكينونته، إلا أن خلق الإنسان الواعي والعقلاني يتطلب استحداثا لتربية نظيفة غير متأثرة بالتوجهات والإيديولوجيات المتعددة والمغيبية للمذهب الإنساني في قيامها على الركائز الثلاث "العقل، الأخلاق، الروح"؛ تأخذ التربية مشعل تأسيس الإنسانية وفق قواعدها، مستندين إلى التربية الطبيعية المبنية على الفطرة البشرية أساس الإنسانية بعد إعمال العقل، في تجانس مع القوى الأخرى، وفور الاحتكاك بالمجتمع المؤدلج نتحدث في الوقت الراهن "المعولم" عن البشري الهجين المستسلم للغريزة الاستهلاكية، والتي من شأنها أن تلقى منافسة من الجانب السلطوي لهذا البشري...، وفي فهم للأخلاق وانعكاسها على السلوكيات، فهي قائمة على رمزية هادفة وفق مجموعة من الأنماط.

إن ما تكشفه أنماط الأخلاق: بصرف النظر عن قيمة مزاعم من نوع يوجد فينا أمر حملي فإنه لا يزال من الممكن طرح السؤال: ماذا يقول زعم كهذا بصدد من يزعمه؟ هناك أنماط أخلاق ينبغي أن تبرر صاحبها أمام الغير؛ وأنماط أخرى ينبغي أن تطمئنه وتجعله راضيا عن نفسه؛ وأخرى يريد بها أن يصلب نفسه ويذلها، وأخرى يريد لها لينتقم، وأخرى ليختبئ، وأخرى ليسمو ويضع نفسه خارجا وعاليا وبعيدا؛ أخلاق تساعد صاحبها على أن ينسى وأخرى على أن ينسى هو أو شيء ما يتعلق به؛ ورب أخلاقي يرغب في أن يطلق سلطانه ومزاجه المبدع على الإنسانية؛ وآخر، وربما كمنط بالذات أيضا، يعلن بأخلاقه: "ما يستحق الاحترام هو أنني أستطيع أن أنصاع، وعندكم ينبغي أن لا يكون الأمر على غير ما هو عليه عندي!". باختصار، ليست أنماط الأخلاق هي الأخرى سوى لغة علائم الأشاعير (فريدريك، نيتشه، 2003: 129-130).

أن أقدم الرشوة بدافع أن الجميع يقدمها فهذا اعتراف بالأخلاقية لهذا السلوك، أما تقديمها بغير مسمياتها واعتبارها "هدية أو حلوة أو قهوة..."، فهو عبارة عن إقناع وطمأننة للذات وتجنب الرقابة واللوم الذاتي والاجتماعي، هنا تزدوج المعايير الأخلاقية بين كون الرشوة فعلا لا أخلاقيا، وكون تقديمها بتغيير مسمائها هو فعل تعاطفي وأخلاقي، ليبقى المشكل هو العزل بين القيم الأخلاقية والسلوكيات الفردية - اجتماعية، من نحاسب ومن المؤثر...؟

الخاتمة:

إن دراسة السلوك الإنساني من منظور سوسيولوجي تقتضي الانفتاح على العلوم الإنسانية والاجتماعية الأخرى: علم النفس الاجتماعي، علم النفس المعرفي، الفلسفة والأنثروبولوجيا...؛ فالإنسان ليس أسيرا تاما للبنى الاجتماعية، ولا حرا مطلقا في فعله الذاتي، بل هو في جدل دائم بين الحرية والضرورة، بين الفردية والجماعية. وفي هذا الجدل تتجلى إمكانات التغيير والإبداع. باعتبار أن استحضار هذا البعد التكاملي بين المقاربات من منظور سوسيولوجي عامدا إلى فتح أفق جديد لفهم السلوك الإنساني وتوجيهه، خاصة في عالم يعيش على وقع تحولات كبرى تستدعي إعادة التفكير في موقع القيم والمعنى داخل الفعل البشري.

قائمة المراجع والمصادر:

- غيدنز، انتوني (2001): علم الاجتماع، ترجمة: فايز الصياغ، ط4، بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
- نيتشه، فريدريك (2003): ما وراء الخير والشر، ترجمة: جيزيلا فالور حجاز، مراجعة: موسى وهبه، بيروت: دار الفرابي
- احجيج، حسن (2018): نظرية العالم الاجتماعي قواعد الممارسة السوسيولوجية عند بيير بورديو، الرباط: مؤسسة مؤمنون بلا حدود للأبحاث والدراسات.
- Hamblin, R. L., & Kunkel, J. H. (dir.). (2021). Behavioral theory in sociology: Essays in honor of George C. Homans. Londres: Routledge. (rééd. Numérique).
<https://doi.org/10.4324/9781351319201>
- Weber, Max. (1978). Economy and society: An outline of interpretive sociology (Edited by Guenther Roth & Claus Wittich, translated by Ephraim Fischhoff et al.). Berkeley, Los Angeles, London: University of California Press.
- Durkheim, É. (1982). The Rules of Sociological Method (S. Lukes, éd.; trad. W. D. Halls). New York: Free Press.